الأدب المهـــنى (١)

أو

أدب أرباب المهن

للاديب خليل رشيد

— ١ —

إلى أولئك النفر القليل ممن جادت بهم الحياة ووهبتهم النبوغ والعبقرية الذين أبوا العيش إلا من قوة أيديهم وعرق جباههم تقدم هذا الحديث.

قبل الشروع فى الحديث أود أن أبين السبب الذى دعانى إلى جمع ماتناثر من أخبار هؤلاء الأدباء ولم شعثهم فى مدرج هذا الحديث. هى أمنية طالما اعتلجت بها النفس، واختلج بها القلب ، أن أهدى ما ضل من تلك العقول الآسنة التى تجعل الأدب وقفا على الطبقة الممتازة وعلى البطالين من ممتهنى الأدب الأفاقين الذين يأبون النزول إلى ميدان العمل بدعوى أن العمل لا يتفق وكرامة الأديب، وأن الأدب والعمل على طرفى نقيض. وهذا القرآن بصريح بيانه يقول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) . وأن ليس للانسان إلا ما سعى) . وفضلنا المجاهدين على القاعدين درجات) . والقرآن ملىء بفضل العمل وشرف العامل وذم البطالة والبطالين . ومتى كان أديب التسول والاستجداء أرفع من الأديب المهنى . ومتى كانت للهنة ضمة وحطة لممتهنها ؟ وقد جاء فى الحديث الشريف (إن الله يعطى العبد على قدر همته وفهمته) (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) (اعقل وتوكل) (أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفى الفارغ) (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) (إذا قصر العبد فى العمل ابتلاه الله بالهم) (أخشى ما خشيت على أمتى كبر البطن ومداومة النوم والكسل) مضافا إلى هذا وذاك وزيادة فى الايضاح نورد بعض ماورد من حكم فى هذا الباب .

قالت الحكماء .

(كلب طواف خير من أسد رابض) (البطالة تقسى القلب) (أطلب تظفر) (من عجز عن زاده اتكل على زاد غيره) (من المعجز نتجت الفاقة) (الدعة ذل) (لا يفترس الليث الظبي وهو رابض) .

وجاء فى الشعر العربى قديما فى تأييد ما ذهبنا إليه !

وما غلظت رقاب الأسد حتى . بانفسها تولت ما عناها

وهذا أبو دلف يقول . —

ما للرجال وللنعيم وانما خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وهذا السراج الوراق ينشدنا . —

دع الهوينا وانتصب واكتسب واكدح فنفس المرء كداحه

وكن عن الراحة فى معزل فالصفع موجود مع الراحه

وهذا خليفة من خلفاء الامبراطورية الاسلامية يزيد بن عبد الملك يقول (ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز) .

ومن هذا القبيل كثير لا يحصيه عد ولا يحصره حد .

ولا بدع إذا ما امتهن الاشراف بعض المهن من الصنائع ونبذوا التجارة وراءهم ظهريا إذ فى التجارة فقدان مروءتهم ومنافاة الشرف الذى إليه يسمون . ونكتفى بالتدليل على ذلك بقول ابن خلدون فى مقدمته صفحة (٣٩٥) ما هـذا نصه وتحت عنوان (خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك) . ثم يشرح ذلك قائلا (إن التجار فى غالب أحوالهم إنما يمانون البيع والشراء، ولا بد فيه من المكايسة ضرورة، فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهى أعنى خلق المكايسة بعيدة عن المروءة التى تتخلق بها الأشراف، وأما أن استزل خلقه بما يتبع ذلك فى أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والنش والخلابة وتعاهد الايمان الكاذبة على الأثمان رسما وقبولا فاجدر بذلك الخلق أن يكون فى غاية المذلة لما هو معروف، ولذلك تجد أهل الرياسة يتحاشون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما تكسب من هذا الخلق . ». ولم يكتف ابن خلدون

١ — من كتابنا . الأدب المهنى المخطوط

ما لا صلة له بالموضوع .

وأخيرا فإنا نشكر لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجليل عيسى جهوده المباركة . وفقنا الله وألهمنا الصواب .

حامد محمود
عضو جماعة كبار العلماء
ورئيس التفتيش بالأزهر

بهذا القدر بل ذهب فى تأييد ذلك بمقدمته أيضا صفحة (٣٩٩) قائلا (قد قدمنا فى الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح ولابد من ذلك فى المكايسة والماحكة والتحذاق وممارسة الخصومات واللجاج وهى عوارض هذه الحرفة وهذه الأوصاف تنقص من الذكاء والمروءة .

فلا بدع إذن من أن ينبذ الأشراف التجارة وراءهم ظهريا لما فيها كما قدمنا من فقدان المروءة وخلق غير خلق الأشراف وهم ينبذ البطالة أحرى وأجدر لما فيها من ذلة وحطة . فما عليهم إلا أن يتخذوا صناعة من الصناعات كى تدر عليهم الرزق وتكفيهم مؤونة العيش .

وما المهنة إلا شرف يتحلى به المرء . وقد امتهنها الاشراف من العرب وسادات قريش . واليك ما جاء فى كتاب المعارف لابن قتيبة صفحة (٢٤٩ و ٢٥٠) تحت عنوان صناعات الأشراف فقال .. —

كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر . وكان أبو بكر الصديق بزازا . وكان عثمان بزازاً . وكان عبد الرحمن بن عوف بزازاً . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبـــل . وكان العوام أبو الزبير خياطاً ، وكان الزبير جزاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً ، وكان العاص بن هشام أخو أبى جهل حداداً ، وكان عامر بن كريز جزازاً . وكان الوليد بن المغيرة حداداً ، وكان الوليد بن المغيرة حداداً ، وكان عقبة بن أبى معيط خماراً ، وكان عثمان بن طلحة الذى دفع اليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخرمة خياطا ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان عقبة بن أبى وقاص نجاراً ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان محمد بن سيرين بزازاً ، وكان مجمع الزاهد حائكا ، وكان أيوب يبيع جلود السختيان فنسب اليها . وكان المسيب أبو سعيد زيانا ، وكان مالك بن دينار وراقا ، وكان أبو حنيفة صاحب الرأى خزازا . وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون ما يعزز المهن والصنائع فى صفحة (٣٨٣) بقوله (قالوا المعاش إمارة وفلاحة وصناعة وتجارة ، أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات ؛ وأما الصنايع فهى ثانيتها . وجاء أيضا بالمصدر نفسه (ص) ٤٠١ (إن رسوخ الصنايع فى الأمصار هو برسوخ الحضارة وطول أمده) . وورد أيضا بنفس المصدر (ص) ٤٠٣ (إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وقد يذهب البعض من أدعياء الأدب على أن الأدب وقف على ذوى المراكز الممتازة والطبقة العليا ولا يحق لغير هذه الطبقة أن يدعيه . وإن ادعاه أحد غير هذه الطبقة فادعاؤه باطل وإن جاء بالمعجز المبدع . وإذا ما جاءهم أديب مهنى من ذوى النبوغ والعبقرية بادب رفيع ممتاز فلا يقابل أدبه بغير الاستهجان والازدراء ومط الشفـــاه ، أقول ، — متى كانت العبقرية بنت القصور والضياع ووليـــدة الغنى والثراء ؟ ومتى كان الذكاء أليف الترف والنعيم ؟ وكثيرا ما نرى التبلد الذهنى والخمول العقلى حليف القصور وتوأم الترف والنعيم . وقولهم يناقض العرف وما قيل قديما من أن العبقرية بنت الجوع . ولنعرف الأدب والأديب قبل الدخول فى صلب الموضوع .

الأدب :

مرآة صافية تنطبع عليها انعكاسات المجتمع وصوره بما فيها من آلام وآمال . والأديب — هو العدسة اللاقطة لتلك الصور والانعكاسات . فاذا ما تأثر الأديب بصورة من صور المجتمع أخرجها لوحة فنية ذات منظر أخاذ ، وليس عليه ما تبعثه الصورة فى النفس من ألم وانقباض أو بسطة وانشراح وإنما عليه أن ينقل الصورة بكل أمانة وصدق ، يستطيع والحالة هذه التقاط صور المجتمع بما فيها من آلام وآمال إلا من اندس بين طبقات المجتمع وعانى ما يعانيه من بؤس وشقاء فمتى يستطيع ذو البرج العاجى حليف الخمرة والدن واليف القيد من أبناء الترف والنعيم تصوير البؤس والشقـاء وهى صور الأغلبية الساحقة للشعب ؟ وكيف يستطيع أن يعطينا الصورة صادقة صحيحة من برجه العـاجى من لم يتذوق البؤس والشقاء ؟ فليس أديبا ولا فنانا من يصف لنا الحياة من دائرة ضيقة ولا يراها إلا من جهة واحدة . وليس الأديب إلا من يعطينا صور الحياة من جميع جهاتها بما فيها من آلام وآمال وسعادة وشقاء . ولا يستطيع هذا إلا الأديب الذى خبر الحياة وتذوق منها طعم اللذة والألم . وذاك أديب الواقع الذى يعيش بين طبقات المجتمع ويندس بين صفوفه ، وهذا ينقسم إلى قسمين . قسم يفضل الراحة والهناءة